

## الفصل الرابع

# سانتينا وتهافت الحدسية



## الفصل الرابع

# سانتيانا وتهافت الحدسية

### سانتيانا وتهافت الخيرية

ما الموقف الذى جعل «سانتيانا» يسخر من رسل ويهاجم تصوره للخيرية؟ وما دعائم النقد التى بنى عليه «ستيفن بيبر»<sup>(\*)</sup> نقده لمفهوم الخير الحدسى برمته؟ وهل يمكن القول أن النظرية الحدسية التى حفر جذورها جورج مور وأعاد صياغتها فى نفس الصورة برتراند رسل قد ارتدت على أعقابها مدبرة؟؟ أم أن النقد الفلسفى هو الميزة التى يتميز بها رواد الفكر الفلسفى فى القرن العشرين دون أن تجهد صرح النظرية فى شيء؟؟ وما المنهج الذى انتهجه سانتينا فى تبريره لنقد التصورات الخيرية لنظرية

(\*) ولد «ستيفن بيبر» Stephen Colburn Pepper فى نيوارك Newark، نيوجيرسى New Jersey فى الرابع من إبريل عام 1891م. وكان والده هو مصور البورتريهات المشهور «تشارلز نوفى بيبر» Charles Novey Pepper وجده هو رئيس مشهور لكلية كولبى Colby College، وعندما بلغ «بيبر» الثانية عشرة من عمره سافرت أسرته فى رحلة حول العالم، وفى ذلك الوقت بدأ «بيبر» كتابة يومياته التى سوف يستمر فيها طوال حياته. وبعدها حصل «بيبر» على درجة البكالوريوس فى الفنون والآداب A.B. Bachelor of Arts من جامعة هارفارد عام 1913م، والماجستير M.A عام 1914م، ثم حصل على الدكتوراه فى الفلسفة Ph.D عام 1916م. وفى نفس العام استمع «بيبر» إلى محاضرات «جورج سانتينا»، كما درس على «بالمر» Palmer، ولكن «رالف بارتون بيرى» Ralf Barton Berry هو أستاذه فى هارفارد الذى كان تأثيره عليه كبيراً فى تطوره العقلى. وفى عام 1919م التحق «بيبر» بقسم الفلسفة بجامعة كاليفورنيا فى «باركلي» University of California at Berkely حتى أصبح أستاذاً عام 1930م، ثم أستاذ كرسى الفلسفة وأستاذ كرسى الفن، حتى وافته المنية فى 1 من مايو لعام 1972م. انظر- رمضان الصباغ: النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م، ص ص- 12.

القيمة الحدسية؟؟ وإلى أى حد كان «ستيفن بير» محقاً في نقده الخيرية الحدسية المورية التي اتبعها رسل بشكل كلي؟؟

قبل الشروع في تحليل نقد النظرية التصورية لمحمول الخيرية كما عرضها سانتيانا(\*) في كتابه «اتجاهات النظرية» Winds of Doctrine كدراسة نقدية للاتجاهات المعاصرة في الفكر الفلسفي، يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة إلى الرؤية التي قدمها «آير»(\*\*) إلى تصور

(\*) يشير الكاتب هنا إلى تلك العلاقة التي كانت قائمة بين كل من سانتيانا ورسل في بدايتها الأولى منذ أن زار سانتيانا إنجلترا في عام 1896م، على الرغم من سانتيانا كان على علاقة أقل سعادة مع المؤسس الأول للنظرية الحدسية ألا وهو «مور»، فرسل هو الرجل الإنجليزي الأول الذي قابله سانتيانا عندما أرسل إلى جامعة أكسفورد، كما زار رسل الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1886م، حيث زار هارفارد لبضعة أيام وقدمه أحد الأشخاص لزيارة سانتيانا، ثم كون سانتيانا عنه انطباعات من منظور أن رسل مستمع جيد، وقد استمرت صداقتهم الحميمة حتى مات سانتيانا...  
انظر:

Timothy L. S. Sprigge: Santayana, an Examination of his philosophy, Routledge- Kegan Paul, London and Boston, 1974, p.26.

و«في مدح الكسل» أخبرنا رسل بنفسه عن تلك العلاقة الحميمة التي كان بينه وبين سانتيانا، فيقول: «لقد أخبرني أخى الذى عرفت سانتيانا عن طريقه بأنه فيلسوف، ولذلك نظرت إليه في إجلال عظيم زاد من شأنه ما كنت أحس به من تحرر وانطلاق، فكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال. أنصت إليه باحترام لأنه بدا لي كما لو كان تجسيدا لمركب صعب - أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا، كما كان في حياته الخاصة شبيهاً جداً بما كان عليه في كتبه، فكان دمث الأخلاق شديد الرقة والعناية فيما يقوم به- كما كان من النادر جداً أن تثور أعصابه. وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال- أى شيء من الحديث الذى دار بيننا في تلك المناسبة.».

انظر: برتراند رسل: في مدح الكسل ومقالات أخرى، ترجمة / رمسيس عوض، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 65، 1998م، صص 76، 75.

(\*\*) أثرت هنا أن أبدأ بفيلسوف الوضعية المنطقية «آير» لمناقشة رؤيته النقدية للنظرية الحدسية، وذلك لكون «آير» أحد دعائم الفلسفة التحليلية المعاصرة، فضلاً عن كونه رائد الوضعية المنطقية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى - وهى الأهم - أن «آير» قد عاصر كل من «مور» و«رسل» وكان زميلاً لهما في كيمبردج، مما دعى «آير» أن يجعل أحد كتبه المهمة يحمل عنوان «رسل ومور» ليناقد الاختلافات الجوهرية التي كانت بين الفيلسوفين، و«آير» عندما يقوم بنقد الاتجاه الحدسى لا ينقده في فلسفة رسل فحسب، وإنما وجه «آير» رؤيته النقدية للنظرية الحدسية برمتها متمثلة في مؤسسها «مور» أولاً، ومن سايه فيها ويقصد رسل هنا، بينما كان نقد سانتيانا موجهاً لنظرية رسل الحدسية فقط، وذلك لكون سانتيانا ورسل صديقين بينهما علاقات وكتابات فلسفية، في حين كانت علاقة «مور» و«سانتيانا» تكاد =

رسل للحدسية الأخلاقية، حيث يرى «آير» أن رسل لم يعط أبداً اهتماماً كبيراً للنظرية الأخلاقية رغم أن كتاباته في المسائل الأخلاقية كان لها تأثيرٌ لا حد له، فقد كان رسل مقتنعاً في أيامه - وقائعاً بمتابعة «مور» في تبني وجهة نظر واقعية حول «الخير» من حيث أنه المصطلح الأخلاقي الأساسي، وفي اعتبار الأفعال الصحيحة الأفعال ذات النتائج الأفضل، فلقد كان إسهامه الأساسي الوحيد يكمن في إصراره على أن حرية الإرادة تتطلب الحتمية<sup>(1)</sup>.

ويعيب «آير» على النزعة الحدسية برمتها في عدم اهتمامها بالوظيفة التعبيرية التي يمكن أن تكون للحدود الأخلاقية<sup>(2)</sup>. ولكنه يغفر لرسل إخفاقه في نظريته الحدسية، وذلك كما جاء على لسان «آير» في قوله «أن رسل كان مهتماً اهتماماً شبيهاً يافعاً بالميتافيزيقا وتساؤلات الفلسفة الخلقية، ولكن كان حبه الأول كما أشرت سابقاً إلى الرياضيات، حيث كانت لديه الرغبة في إيجاد السبب الحقيقي الذي من أجله كان صدق الرياضيات»<sup>(3)</sup>.

كما تخفق النظرية الحدسية كنظرية أخلاقية وذلك لأننا نستطيع أن نقدم في كل حالة تبرير Justification لما تمليه علينا حدوسنا، بالإضافة إلى أن النظرية الحدسية قد تعني في التحليل النهائي أحد معنيين لا نرى بينهما ارتباطاً منطقياً أو ضرورياً، فهي قد تعني النظرية المعرفية الخاصة بطبيعة الأحكام أو الأسلوب الذي يتوصل به إلى معرفة هذه الأحكام، أو أنها تعني النظرية التي ترى أن هناك عدداً من القواعد الأخلاقية التي تكون ملزمة لنا دون النظر لخيرية هذه القواعد<sup>(4)</sup>.

أما جورج سانتيانا - فيلسوف جامعة هارفارد Harvard Philosopher قد قرر بطريقة بارعة تدمير وإبطال نظرية برتراند رسل الأخلاقية، وكذلك تلميحات «مور» الأخلاقية في هذا الصدد، فنظريته الأخلاقية لم تكن عبارة عن تحليل منطقي لفلسفة الأخلاق، فهي

= تكون طفيفة جداً، في حين كون «سانتيانا» مع «رسل» صداقة وطيدة مما دعى الأول أن يذكر الثاني في كتابين مهمين وهما «رياح المذهب» و«اليوريتاني الأخير» وهو عبارة عن مسرحية شعرية، في حين لم يذكر «سانتيانا» «مور» في أي من كتاباته... الباحث.

(1) ألفريد جولد آير: الفلسفة في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 117.

(2) محمد مدين: الأكسيولوجيا في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 81.

(3) A. J. Ayer: Russell and Moore, op.cit, p.5.

(4) محمد مدين: الأكسيولوجيا في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 82.

بالكاد تأخذ بشكل جدى هذه الألفاظ الإدراكية لإمكانية تعريف الخيرية، وكذلك الأشكال المختلفة للخيرية، وأيضاً تأخذ في طياتها ذلك الترابط الوثيق بين القيمة والإلزام<sup>(1)</sup>. فرسل الفيلسوف الأخلاقي في نظر سانتيانا- قد وقع في خطأ في فادح، فلا يجوز لفيلسوف أخلاقي متمرس أن يقع بعد ذلك في خطأ آخر<sup>(2)</sup>.

وهنا ينبغي التعرض لنقد سانتيانا لرسل، حيث يحاول سانتيانا أن ينقد رسل في مقاله «عناصر النظرية الأخلاقية» حيث يأخذ عليه سانتيانا أنه بدأ دراسته بقوله «إن ما يسمى بالسلوك الخير good conduct هو وسيلة للأشياء الخيرة بطبيعتها own account لذلك كانت دراسة الخير والسعى منصباً ضمن خصائص النظرية الأخلاقية»<sup>(3)</sup>. بل رأى سانتيانا أنه بالنظر إلى الاتجاه الأخلاقي عند الفيلسوف محل الدراسة نجده يفتقر فيه إلى الأساس الأخلاقي، ولكن هذه الحقيقة على حد تعبير سانتيانا عنه لا تمنعه من أن يكون له أساس طبيعي a natural ground<sup>(4)</sup>.

وفي هذا الصدد حاول «مور» أن يبرهن واتفق معه رسل في ذلك على أن معظم الفلسفة الخلقية التي كانت موجودة في الماضي قد وقعت في خطأ جسيم، عندما حاولت أن تجعل الخيرية إلى جانب الخصائص الطبيعية الأخرى، ولهذا السبب فهي قد أنكرت النظرية الأخلاقية بوصفها نظرية، وكذلك أهملت مضمون القيمة<sup>(5)</sup>. كما احتفظ «مور» بالخاصية القيمة للشيء-الأو هي- الخيرية تلك الخيرية التي توجد داخل الشيء وتكون مرتبطة بالطبيعة الذاتية للشيء ذاته، ولكن ليس هناك طريقة أخرى لهذه الخصائص الأخرى المتناقضة، كما اقترح أن الواجب duty والإلزام ليسوا كالخيرية من حيث التعريف أو التحديد، فأى جملة إلزامية تنجذب نحو نوعين من الجمل الإلزامية: الأولى هي الميل نحو القيم الباطنية، والأخرى: في النتائج المعتادة للأفعال<sup>(6)</sup>.

وهنا تأتي الاعتراضات التي جلبها رسل لنظريته الحدسية من قبيل- كون الخيرية المشار

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.472.

(2) G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.139.

(3) Ibid: p.138.

(4) Ibid: p.114.

(5) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.

(6) Ibid: p. 465.

إليها في عناصر النظرية الأخلاقية خاصة لا طبيعية، بل وصفه للنظريات الخلقية السابقة عليه بأنها وقعت في خطأ عظيم عندما حاولت أن تبرهن على كيفية الخير عن طريق الكيفيات الطبيعية الأخرى، مما جعل سانتيانا يشير إلى نصوصه في مقاله السالف الذكر ويقتبس منها البرهان على خطأ نظرية رسل الأخلاقية، حيث يقول سانتيانا ويتفق معه في هذا الرأي «رونالد جاجير» Ronald Jager أن رسل كتب يقول «أن الخير والسيء عبارة عن كيفيات qualities بسيطة تخص الأشياء بطريقة مستقلة عن آرائنا، مثلها في ذلك مثل فكرة الدائرة والمربع<sup>(1)</sup>.

إذا كان رسل قد قال أن «الخير غير قابل للتعريف» Good is indefinable فإن ما قاله يبدو تافهاً إلى حد ما «على حد تعبير سانتيانا متفقاً معه «جاجير»، فعلى الرغم من أن رسل يشبه مور من قبله، في كونه يثير هذا المبدأ العجيب، فإنه بذلك غير قادرٍ على تعريف الخير، وعندما كان رسل غير قادرٍ فإنه يجعل «الخير» ساكناً «راكداً» Hypostasises فالكيفية «خير» غير قابلة للتعريف وهى تمثل ذلك التوكيد الوحيد والصريح، ولكن وجود هذه الكيفية غير مشروط بوجود الكيفيات الأخرى، وهذا يؤدي إلى إثارة العجب<sup>(2)</sup>.

يقول سانتيانا «إن منطقى الذى آمنت به غير يقينياً، فقد كنت أتمنى من السيد رسل أن لا يتركنى أكتشف بنفسى ذلك الارتباط بين هاتين القضيتين أن اليمين واليسار غير قابلين للتعريف Right and Left are indefinable وأن كل شيء تجاه اليمين ليس ناحية اليمين دون شرط، فإذا كان هناك في نفس الوقت شخص آخر ينظر في الجهة المضادة، فإن الذى يكون حقيقياً بالنسبة للناحية اليمنى يكون حقيقياً بالنسبة للناحية اليسرى أيضاً. فإذا كان السيد رسل يعتقد أن ذلك يعد تناقضاً contradiction فأنا أفهم هنا لماذا هذا الكون لا يثير العجب تجاهه<sup>(3)</sup>.

إن التناقض هنا كما يقول سانتيانا ربما يكون حقيقياً وغير قابل للشك، فإذا افترضنا أن فكرة الخير في أى وقت أو فى أى علاقة بفكرة الشر، أو بحدسية اليمين واليسار، أو بكيفيات الألوان مثل الأخضر أو الأصفر، فإن هذه الماهيات المشار إليها غير متجسدة، ولكن هى

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.

(2) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.473.

(3) G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.141.

ماهيات ثابتة من خلال الأهداف المشار إليها<sup>(1)</sup>. وإذا كانت الحقيقة تقول أن المربع يكون دائماً مربعاً والدائرة هي نفسها الدائرة، فإن الشيء الدائري ربما يكون بالتأكيـد مربعاً أيضاً، وذلك إذا سمحنا لذلك الشيء أن نعطيه ذلك الحجم الصغير ليكون شكلاً اسطوانياً<sup>(2)</sup>. أى أن نظرية رسل الحدسية في الأخلاق سوف تؤدي إلى إختلاط المفاهيم والأفكار الفلسفية، هذا من وجهة نظر سانتيانا.

من خلال ما سبق لقد كان لسانتيانا الحق في أن يبطل حدسية رسل الأخلاقية، وقد اعترف رسل بنفسه في ذلك عندما قال «إنني أدين لسانتيانا ببعض الديون الفلسفية، فقد كنت وأنا صغير لا أزال أوافق جورج إدوارد مور على اعتقاده في موضوعية الخير والشر، ولكن نقد سانتيانا لها في كتابه «رياح المذهب» جعلني أهجر هذه النظرة وإن لم أستطع أن أنام مستريحاً بهذا كما كان يستريح»<sup>(3)</sup>.

يرى الباحث- أن جورج سانتيانا - في معرض انتقاده لرسل، كان نقده منصباً على الخصائص الطبيعية بالفعل التي استخدمها رسل ومور من قبله مثل خصائص الألوان، والاتجاهات من اليسار إلى اليمين، وكذلك الدائرة والمربع، فإن كانت هذه الخصائص تقع داخل إطار الحدسية، فإنها لا يمكن بأي حال أن تتساوى مع المحمولات القيمة التصورية مثل الخيرية أو الصوابية، حيث أن هذه الخصائص طبيعية أما محمولات القيمة فهي غير طبيعية عند كل من رسل ومور، لذلك ركز سانتيانا في نقده إلى إدراك اللون الأحمر الذي ضرب لنا رسل به المثل، فاللون عند سانتيانا له شروطاً تعريفية محددة، وهذه الشروط التعريفية لا وجود لها في إدراك الخيرية Goodness مما يجعل المقارنة بينهما خاطئة، بالإضافة إلى أن رسل يعترف بأن «الخيرية كيفية غير حسية» بينما اللون الأحمر عند رسل، والأصفر عند مور عبارة عن كفاءات حسية

(1) Ibid: p.142.

(2) Ibid: pp. 142,143.

(3) برتراند رسل: صور من الذاكرة ومقالات أخرى، ترجمة/ أحمد إبراهيم الشريف، مراجعة: زكي نجيب محمود، دار الفكر العربي، القاهرة، 1963م، ص 103.  
انظر أيضاً:

Bertrand Russell: Philosophy of Santayana, in, The Philosophy of George Santayana, Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 459.

بالفعل، ولكن الأمر يختلف مع «الخيرية» فهي كما يؤكد رسل كيفية غير حسية وغير طبيعية، بالإضافة إلى كوننا ليس لدينا الحاسة الخلقية التي تمكننا من إدراكها، ومن ثم فالمقارنة بينهما أى اللون والخيرية مقارنة فيما يرى سانتيانا وجاجير غير مجدية، فلا يمكن مقارنة الشيء الطبيعي بالمحمولات غير الطبيعية.

ولكن إذا كان «مور» يشير إلى الخيرية مقارنةً بينها وبين اللون الأصفر، و«رسل» يقارن بينها وبين اللون الأحمر، فإن سانتيانا في معرض انتقاده لرسل قد قارن بين الخيرية واللون الأخضر من حيث كون اللون عبارة عن صفة غير قابلة للتعريف على حد تعبير «اسبيريج» في كتابه عن سانتيانا<sup>(1)</sup>.

يمكن القول هنا أن سانتيانا يقع في خطأ عجيب، هذا الخطأ أتى إليه بطريق غير مباشر أى أن سانتيانا لم يكن يقصده، فعندما حاول سانتيانا بيان تهافت الخيرية عند كل من مور ورسل، استخدم نفس المنهج الذى أخذه به فلاسفة التحليل الأخلاقي، ألا وهو منهج «الميتا أخلاق» وقد تبدى هذا المنهج فيما كتبه سانتيانا عن الأخلاق الساكنة Hypostatic Ethics التى وصف بها النظرية الحدسية لرسل في الخير والصواب، لذلك لم يكن سانتيانا راضيا بذلك الوصف مما جعله يقول «هذا ما جعل المسهار يضرب على الرأس» ذلك على حد تعبير سانتيانا في دفاع عن نفسه<sup>(2)</sup>. حيث فتح الباب أمام الكثير من الكتاب المعاصرين في أن يرجعوا نظرية سانتيانا برمتها في فهم طبيعة الخيرية الأخلاقية إلى نظرية جورج مور، فقال «اسبيريج»<sup>(3)</sup> أن سانتيانا الفيلسوف الطبيعي الأخلاقي Ethical naturalist الذي يعد واحداً من أتباع النزعة المورية، يتفق مع نظرية مور الأخلاقية في عنصرين هامين:

**الأول:** أن الأفعال الخيرة فقط هي التي تعبر عن الخير في حد ذاتها.

**الثاني:** أن الخير صفة غير محددة حيث يمكن أن نواجهه عن طريق الحدس.

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.188.

See also - G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.142.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , in The Philosophy of George Santayana , Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 504.

(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, pp.189,190.

لقد رأى «ارفينج سنجر» أن سانتيانا أقر بنفسه أن رسل يشبه جورج مور في إصراره على أن مفهوم الخير غير قابل للتعريف، ومن خلال ذلك استنتج سانتيانا بأن الخير والشر عبارة عن صفات تستخدم لوصف الأشياء بشكل له استقلالية عن آرائنا الخاصة<sup>(1)</sup>.

إن وقوع سانتيانا في منعطف الحدسية المورية جعله يشير إلى الخير مقارنة باللون الأخضر، بل يرى أنه بالنسبة لمفهوم الخير كما يقول سانتيانا في «العقل في العلم» Reason in Science أنه ربما قد نسأل أي شخص ما الذي يعنيه الخير Good في أي لحظة، أو ما الذي يعنيه أي شخص بالخير في تفكيره وعقله، أو ما الذي يتفق عليه البشر لكي يعبروا عن الخير، أو ما الذي يريده الله بكلمة الخير؟ إنه لا يهم فيما يقول سانتيانا أن يكون الخير هو ما يعتقد به البشر، أو أن يكون الخير الحقيقي true good هو الشيء الذي لا يطلق عليه أي إنسان بأنه الخير، أو حتى كونهم لا يعرفون عنه أي شيء. ولكن الخير هو ذلك الشيء الذي ليست له صفات، أو خصائص، أو علاقة متوقعة سوى أنه عبارة عن خير بسيط (2) It is simply good.

ولكن في الحقيقة لابد من القول بأن سانتيانا صاحب اتجاه فلسفي عظيم في في فلسفة القرن العشرين، فإذا كانت النزعة التصورية لإدراك موضوعية الخير قد جاءتته عن طريق الصدفة من خلال تحليله لفلسفة كل من «مور» و«رسل»، فإن ذلك لا ينقص من قدر الفيلسوف شيئاً في إيمانه بالنزعة الطبيعية الأخلاقية والتي سوف يتبناها رسل أيضاً من خلال الرؤية المقدمة منه في المجتمع البشري في الأخلاق والسياسة، كما لابد من الإشارة إلى أن سانتيانا لم يتجه إلى نقد نظرية كل من «مور» و«رسل» الحدسية، ولكنه سخر من هذه النظرية، فهذه النظرية يراها سانتيانا بأنها فقدت دعائمها الميتافيزيقية، وبالتالي قد تحطمت على الأرض كما يتحطم طقم الأطباق الفيكتوري الصيني Victorian China فهي نظرية لا يمكن التصديق بها والإيمان بها بدرجة كلية، كما أن رسل ذاته لم يكن يعلم أن نظريته تحطمت على هذا النحو<sup>(3)</sup>.

(1) Irving Singer: Santayana's Aesthetics - Acritical Introduction, The President and fellows of Harvard College, U.S.A. 1957, P. 35.

(2) G. Santayana: Reason in Science, volIV, in: the Life of Reason, Collier Books, New York, 1962, p.153.  
- See also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, Appleton Century Crofts, New York, 1951, p.299.

(3) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.  
- Look also- G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.140.

إن المقاربات التي أشار إليها رسل هي التي جعلت نظريته الحدسية تتحطم كما يقول سانتيانا، فعندما يشير رسل إلى أن الطعام والسم لهما نفس الصفات النسبية في نظر بعض الأجسام الحية، حيث يحتويان على نفس الشيء المادى سواء في الطعام أو السم في نفس الوقت، كذلك فإن مشروب الويسكى المسكر whiskey في الحياة البشرية يكون أكثر سمية من مشروب القهوة، وأن الرأي المضاد لهذا القول يعد رأياً خاطئاً، ولكن ما الطريقة التي نحكم بها على هذه الواقعة العجيبة، على الرغم من التباين والنسبية في الإصرار بأن مشروب الويسكى أكثر سمية في حد ذاته دون الرجوع إلى أى أحد من الحيوانات البشرية، وأن هذا السم ينتشر داخل الجسد كما لو كان سماً داخلياً ويكون غير قاتل إذا كان داخل زجاجته، بهذا الأسلوب فقط - تصور السيد «مور» والسيد «رسل» الأشياء لكي تقتل الخير وتقتل السىء dead good and dead bad<sup>(1)</sup>.

وهنا لابد أن ينوه الباحث إلى ضرورة الأخذ بالنقد الذى قدمه «ستيفن بيبر» Stephen Pepper إلى تصور الخيرية الحدسية برمته حتى يكون الباحث هنا قد أقرب شيئاً يسيراً من الموضوعية والأمانة العلمية التى يقتضيها البحث العلمى الفلسفى الأصيل.

يرى «بيبر» أنه على الرغم من دفاع «مور» و«رسل» ومثلى النزعة الحدسية فى الأخلاق عن وجود صفة بسيطة، وغير قابلة للتعريف فى مصطلح «الخير»، وأنه لا يدرك بأى صفة مادية أو تجريبية، وإنما تدرك بالحدس العقلى... فقد كان لزاماً على «مور» وغيره من الحدسيين أن يجعلوا للخير شيئاً واقعياً مادياً يمكن أن نفهم معناه من خلاله، وأن تجنب «مور» الوقوع فى «المغالطة الطبيعية» جعله يقع فى خطأ التشابه أو التماثل، أى لابد أن يكون للشيء شىء آخر يعرف من خلاله<sup>(2)</sup>.

كما أنتقد «بيبر» نظرية «مور» نقداً عنيفاً قائلاً: «أن نظرية «مور» نفسها واقعة فى «المغالطة الطبيعية»<sup>(3)</sup>، حيث تحتوى على تناقض شديد، فأقوى برهان معارض لقول «مور»

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.

Look also- G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.140.

(2) مصطفى عبد الرؤف راشد: القيم الأخلاقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص 207.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

بأن الخير غير قابل للتعريف هو الشهادة القائلة بأن ما يعرفه «مور» على أنه الخير غير القابل للتعريف لا يكون مماثلاً للقيمة أو معرفاً لها، لأن مثل هذه الخاصية غير القابلة للتعريف لا تبدو أنها موجودة<sup>(1)</sup>.

يرى «بيبر» أنه مهما كانت حجة «مور» و«رسل» وغيرهم من الفلاسفة الحدسيين ضمن المذهب الصوري صحيحة، فإنهم قد أغفلوا حقيقة مهمة، وهي أن هناك أمور واقعية إدراكية أخرى في المسائل الأخلاقية يمكن أن تنصب عليها، كما أن تصريحات كل من «مور» و«رسل» بأن الخير لا يمكن تعريفه أو تحديده، لأنه كيفية بسيطة وأولية، فهذا يعد خطأ فادح، فمن الواقع أن الكيفية الأولية لا يمكن أن تعرف بشكل وصفي، لكنها تُعرف بشكل ظاهري، وهذا الكيان البسيط يمكن أن يكون واضح المعالم جداً بواسطة طريقة عملية مثل الإشارة التي تقود الشخص لتمييز الشيء الذي يهدف إليه التعريف<sup>(2)</sup>.

وقد أشار «بيبر» أيضاً في مناقشته للحدسيين إلى أن محتوى حدوسهم المعرفية المزعومة متناقضة، لأن مثل هذه الحدوس حتى وإن كانت حقيقية، فإنها ليست ذات تأثير مباشر على السلوك الإنساني، وأنه مهما كان محتواها يمتلك براهين علاوة على التحليل، فإنه مستعار من واحدة أو أكثر من النظريات الامبريقية التي ينكرونها<sup>(3)</sup>.

ولكن إذا كانت إنتقادات «بيبر» موجهة إلى النظرية الحدسية عامة، وإلى تصور حدسية مور لمفهوم الخيرية خاصة، فإن «برتراند رسل» تنطبق عليه أيضاً الإنتقادات التي وجهها «بيبر» للنظرية الحدسية، وذلك من خلال المبدأ المنطقي الذي مفاده أن ما ينطبق على الكل ينطبق بالضرورة على الجزء الذي يندرج تحته، وبما أن «جورج مور» يمثل الكل في النظرية الحدسية، وأن فيلسوفنا يمثل الجزء في هذه النظرية، فلا غرو أن تنطبق هذه الإنتقادات على رسل أيضاً.

ولكن هنا ينبغي علينا أن نشير إلى أن سانتينا كان صاحب الفضل على الفيلسوف محور

(1) إيمان محمد عبدالمجيد شكرى: القيم عند إيربان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1996م، ص 96.

(2) المرجع السابق، ص 208.

(3) رمضان الصباغ: النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص 18-19.

الدراسة في تخليه عن نزعة الحدسية، ورغم ذلك يعترف سانتيانا لرسل في مولد العقل the Birth of Reason «أن عين اللورد رسل متحركة ودقيقة، فهي تستطلع الكون كضوء كشاف مركز على نحو مكثف، ولكنها لا ترى غير رقعة صغيرة في كل مرة»<sup>(1)</sup>. بل حكم سانتيانا على رسل بقوله «حتى حين تكون بصيرة رسل على شدتها وأنفذاها، فإن رؤيته الفلسفية تركزها أكثر بما يجب فتكون البؤرة مجهرية فيرى شيئاً واحداً بوضوح غريب أو يرى خطأ واحداً من التاريخ والسياسة فيعميه الوضوح الحى لهذا الشئ الجزئى عن رؤية الباقي»<sup>(2)</sup>. ورغم ذلك اعترف رسل بعلاقته الحميمة لسانتيانا لدرجة جعلت رسل يقول عنه: «أما بالنسبة لى فقد كانت نظرتي إلى شأن نظرتي إلى سائر فلاسفة الشمال، نظرة الرثاء اللطيف لمن يحاولون مرتقى أعلى مما يطيقون، على أن هذه النظرة لم تعكر مطلقاً صفو علاقاتنا لأن ثقتي الذاتية بوطنى مساوية تمام المساواة لثقتي»<sup>(3)</sup>.

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج مع «رونالد جاجر» قوله<sup>(4)</sup> أن الانتقال من النزعة الموضوعية إلى النزعة الذاتية Subjective يوصف بأنه انتقال إلى الكلى العقلى الظاهري، وأن ملاحظات رسل عن الخيرية النموزجية أو نماذج الخيرية عبارة عن جزء من تحوله، لذلك كان الصواب هنا هو الكائنية issue (إمكانية التحول) التى تعنى إدراك الطريقة المفاجئة التى غادر بها رسل مكانته الداخلية، وأن هذا التحول قد حقق ثلاث اتجاهات من التفكير، ولم يوجد هناك أى اتجاه يمكن القول عنه قد وقف عنده التفكير:

**الأول:** لقد حاول رسل إدراك الحدود الكلية لمعنى الخيرية فيها ينبغى أن تعنيه فى حسابها الخاص، وهذه المرحلة تخلى عنها بعد نقد سانتيانا له، مما يدل على عدم تمكنه من أدواته المعرفية وسطحية رؤيته.

(1) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، دار الآفاق، بيروت، ب. ت، ص 111.

(2) برتراند رسل: فى مدح الكسل ومقالات أخرى، مصدر سابق، ص 79.  
وانظر أيضاً - برتراند رسل: صور من الذاكرة ومقالات أخرى، مصدر سابق، ص 105.

(3) المصدر السابق: ص 100.

(4) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.470.

الثاني: انتهى رسل إلى نزعتة الانفعالية Emotivism والتي كانت الفكرة فيها أن كل أحكام القيمة all value judgments كانت من نفس نوع الأحكام الوجودية being مثلما افترض أن كل الموضوعات واقعية fact وبالتالي فهي تالية مثلما افترض أن كل الموضوعات إنفعالية أو رغبة desire أو تذوق taste .

الثالث: لقد ألزم رسل نفسه بطريقة منطقية نحو الواقعية Realist فعندما نقول أن هذا العشاء طيب، فإن كل الذي تستطيعه هو أن تتيقن أن هذه هي الحقيقة، وأن تجعل من هذه الحقيقة بديهية.

### تعقيب عام

من التحفظات التي يأخذها الكاتب على الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل هي المسيرة العمياء لنظرية صديقه «مور»، فقد كان مور صاحب الفضل الأول على رسل بل وموقفه من سباته المثالي إلى الواقعية الجديدة التي تبناها مور بعد دحضه للنظريات المثالية، وما فعله رسل هنا هو مسايرته لصديقه لا أكثر، ذلك التحول الذي يعد الركيزة الأساسية لدى رسل الذي لولاه ما اقتنع رسل بالنظرية الحدسية لجورج مور، وهذا ما دعا سانتيانا - الفيلسوف الأمريكي - إلى نبذ النظرية الخيرية في حدسية رسل، مما جعله يدعوها بالنظرية الأخلاقية الساكنة، ومحاولته بيان تهافتها في رياح المذهب، لدرجة يمكن القول فيها أن سانتيانا سار في هذه اللحظة من أتباع النزعة المورية في الأخلاق على الرغم من كونه فيلسوف الطبيعية الأخلاقية وفيلسوف الإحساس بالجمال، وبالتالي وقع سانتيانا في شباك النقد من قبل بعض الباحثين الغربيين وذلك عندما كان بصدد نقد فكرة الألوان التي أشار إليها كل من مور ورسل، حتى سايرهم فيها وقال هو باللون الأخضر.